

الموضوع: " الطب والأطباء بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال " لألبر فون شونبيرغ.  
 دة/ فوزية لزغم /قسم العلوم الإنسانية/جامعة ابن خلدون- تيارت.  
 lazhist@gmail.com

### - ملخص البحث:

يُعَدُّ كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال " للطبيب الدنماركي ألبر فون شونبيرغ من أهم المصادر التي تناولت موضوع الطب والأطباء بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وقد نُشِرَ هذا الكتاب لأول مرة في كوبن هاغن عام 1837م بعنوان "موجز عن الجزائر من الناحية الطبية"، إلا أنَّ الأستاذ أبو العيد دودو أجرى بعض التغييرات في عنوانه حينما ترجمه إلى اللغة العربية.

وتكمن أهمية كتاب "الطب الشعبي" في كون مؤلفه خبير بموضوعه، فهو من كبار الأطباء بعصره، وقد جاء إلى الجزائر ضمن الحملة الفرنسية عليها في جويلية 1830، وأقام بها حوالي سنتين، كان يتردد خلالها على الأطباء الجزائريين ويحاورهم، ويسجل ملاحظاتهم بدقة، كما كان يتصل ببعض الأطباء الأوربيين الذين أقاموا بالجزائر قبيل الاحتلال، فأفاده هؤلاء بدورهم بكثير من المعلومات عن الطب بالجزائر، بالإضافة إلى أنه سجل الكثير من الملاحظات بناء على ما شاهده هو بنفسه، ونظرا لتعدد مصادر المؤلف عن الطب بمدينة الجزائر، فقد أسهب في كتابه هذا في ذكر الأمراض التي كانت منتشرة بالجزائر، وفي ذكر الأدوية والطرق التي كان يستخدمها الأطباء الجزائريين في العلاج، وفي الكتاب إشارات مهمة إلى العديد من الأطباء الجزائريين، والأطباء الأوربيين الذين أقاموا بالجزائر قبيل الاحتلال، وإلى جانب الإشارة لبعض المستشفيات والصيدليات التي كانت بمدينة الجزائر آنذاك.

### Summary:

The book "Algerian folk medicine at the beginning of the occupation" of the Danish physician Albert von Schonberg, is considered as one of the most important sources on the subject of medicine in the city of Algeria during the Ottoman period, it was published for the first time in Copenhagen Hagen in 1837, with its original title "A Summary of Algeria from the medical point of view" , And when Mr. Abu Eid Dodo translated it into Arabic, it was published under the title referred to earlier.

The importance of the book "Folk Medicine" lies in the fact that the author is an expert in the subject of his book, he is a senior doctor of his time, and came to Algeria in the French campaign in July 1830, where he spent two years during which he frequented algerian doctors, recorded their observations accurately, in addition to information reported by a number of European doctors who lived in Algeria before the occupation. Schoenberg has written a lot of observations based on what he saw himself. In his book, Schönberg elaborated on the diseases that were prevalent in Algeria and mentioned the medicines and methods used by Algerian doctors for treatment. He also referred to a number of Algerian doctors and European doctors

who had lived in Algeria before the occupation. He referred to some pharmacies that existed in the city of Algeria then.

#### - مقدمة:

نظرا لقلة المصادر المحلية التي تتناول موضوع الطب والأطباء بالجزائر خلال العهد العثماني، يعتمد الدارسون لهذا الموضوع بدرجة كبيرة على المصادر الغربية؛ التي زار أصحابها الجزائر خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، كالقناصل والقساوسة والأطباء، بالإضافة إلى كتابات الأسرى والضباط الفرنسيين في جيش الاحتلال، ومن أهم هذه المصادر كتاب "موجز عن الجزائر من الناحية الطبية" للطبيب الدنماركي ألبر فون شونبيرغ، وهو الكتاب الذي ترجمه الأستاذ أبو العيد دودو - رحمه الله - ونشره بعنوان "الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال"<sup>(1)</sup>، وهو كتاب صغير الحجم، إذ لم تتجاوز عدد صفحاته التسعون صفحة، ولكنه مهم للغاية في موضوع الطب بالجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي.

#### (أولا) - المؤلف والمؤلف:

#### - مؤلف الكتاب:

مؤلف الكتاب هو الطبيب الدنماركي يورغن يوهان ألبر يشت فون شونبيرغ، المولود في 27 سبتمبر عام 1782م، درس في كوبنهاغن، ثم في جامعة غونتنيهن بألمانيا، وبعد تخرجه من الجامعة سنة 1811م تولى عدة وظائف في القطاع الصحي، حيث عُيّن رئيسا لأطباء المستشفى العسكري النمساوي بمدينة نابلي، ثم عمل في عدد من المستشفيات، ونظرا لشهرته في المجال الطبي استدعاه الفرنسيون ليكون أحد الأطباء المرافقين لهم في حملتهم على الجزائر، فلبى دعوتهم، وهكذا أقام بمدينة الجزائر بين سنتي: 1830 و 1832، ولما عاد إلى بلاده عين طبيبا خاصا في البلاط الملكي، وفي سنة 1837م أصبح المستشار الأول لملك الدنمارك، وظل كذلك إلى وفاته في 16 أكتوبر سنة 1841م.

يعد الدكتور شونبيرغ من أبرز الأطباء والمتقنين في عصره، وقد تحصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة فور نسبورغ بألمانيا سنة 1829م، وألف كتباً بلغات عدة؛ الألمانية والإيطالية والدغراكية؛ تناول فيها مواضيع مختلفة كالاقتصاد، والتاريخ والتراجم، السير، والآثار، بالإضافة إلى الموضوعات الطبية مجال تخصصه. وخصّ الجزائر بكتابين نشرهما في كوبنهاغن قبل وفاته، الأول بعنوان "موجز عن الجزائر من الناحية الطبية"، نشره سنة 1837م، وهو موضوع هذه الدراسة، وبعدها بسنتين نشر كتاباً آخر عن الجزائر عنونه بـ " نظرة على احتلال الجزائر الأخير، وتاريخها الحديث واستعمارها"<sup>(2)</sup>.

### - محتوى الكتاب:

رغم صغر حجم كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال " إلا أنه مصدر مهم جداً حول تاريخ الطب والأطباء في إيالة الجزائر العثمانية، سيما مدينة الجزائر التي أقام بها مؤلفه حوالي سنتين، كان يتصل خلالها بالأطباء الجزائريين، ويسعى لجمع المعلومات الطبية وطرق العلاج المستعملة في الجزائر، وما أورده من معلومات يصحح الكثير من الحقائق التي ذكرها غيره من الكتاب الأوربيين.

تناول شونبيرغ في هذا الكتاب كل ما له علاقة بالطب بمدينة الجزائر، وكل ما يؤثر في صحة الإنسان سلبي أو إيجاباً، فتناول أحوال الجو والمناخ بمدينة الجزائر وضواحيها، بالإضافة إلى أسلوب معيشة الجزائريين كأوقات النوم وأوقات الاستيقاظ، ونوعية الغذاء، وخصص حيزاً مهماً من كتابه للأمراض المنتشرة بالجزائر، فكان يصف المرض، ويحاول الوقوف على أسباب الإصابة به، ثم يذكر طريقة علاجه بالجزائر بناء على ما شاهده، أو رُوي له من طرف الأطباء الجزائريين الذين كان يتصل بهم، ويسألهم عن أمور كثيرة تتعلق بالأمراض والعلاج.

ومن الأمراض التي تطرق لها المؤلف ووصف طريقة علاجها من طرف الأطباء المحليين: الأمراض العصبية، مرض الزهري، أمراض العيون، أمراض الكسرة، المغص، أمراض الجيوب التنفسية، الرمد، الإسهال، القبض، أوجاع الرأس، ومن طرق العلاج التي ذكرها: العلاج عن طريق الأدوية والمستحضرات الطبية المركبة من طرف الأطباء المحليين، كالأشربة

والمراهم التي كانت تستخدم لمعالجة الحروق والدمامل، الفصد، والأدوية السرية أو الطب الروحاني وغيرها.

ولم يكتف شونبيرغ بالوصف بل بيّن الأمراض التي كان أطباء الجزائر ينجحون في علاجها، والأمراض التي كانوا يخفقون في علاجها، وذكر لجوء الجزائريين للحمامات العادية لعلاج بعض الأمراض سيما الأمراض الجلدية، بالإضافة إلى الحمام المعدني، كما تحدث عن مختلف الأدوية وطرق استعمالها. وأشار المؤلف أيضا إلى عدد من أطباء مدينة الجزائر، وركز على طرق علاجهم لبعض الأمراض، والأدوية التي كانوا يستعملونها، إلا أنه لم يذكرهم بأسمائهم عدا طبيبا واحدا وهو الطبيب إسماعيل بن محمد، الذي تحدث عنه بإعجاب، كما تطرق إلى القابلات بمدينة الجزائر.

وتناول المؤلف ما أسماه بـ "الشرطة الصحية"، فتحدث عن المزوار، وهو الموظف المكلف بالإشراف على الشرطة الليلية وعلى مراقبة المومسات، اللواتي يُمارسن مهنتهن القذرة تحت رقابته. كما تطرق المؤلف للصيديليات التي كان يمتلكها الأطباء بمدينة الجزائر، وقدم صورة عنها، وعن الأدوية التي كانت تحتوي عليها، ثم تطرق للمستشفيات، سيما المستشفيات التي أقيمت من طرف قوات الاحتلال الفرنسي لعلاج الجرحى، وأعطى وصفا موجزا للمستشفيات التي كانت قائمة بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي.

#### – أهمية الكتاب ومدى موضوعية مؤلفه:

يعد كتاب " الطب الشعبي" من أهم المصادر التي تناولت موضوع الطب والأطباء بمدينة الجزائر عاصمة الإيالة الجزائرية، وتكمن أهمية الكتاب في أن مؤلفه طبيب، أي أنه خبير بالموضوع الذي يؤلف فيه، كما أنه استقى أغلب المعلومات التي نشرها من الأطباء الأوربيين الذين كانوا يقيمون بالجزائر قبيل الاحتلال، ومن الأطباء المحليين؛ والذين كان يتردد عليهم، ويحاورهم ويسجل ملاحظاتهم، بالإضافة إلى مشاهداته الخاصة، وإذا استثنينا بعض الملاحظات في الجانب الاجتماعي والمرتبطة بالمجال الطبي، والتي ظهر فيها تحامل شونبيرغ، فإنه اتصف بالموضوعية في أغلب ما أورده من معلومات في المجال الطبي.

لقد تعامل شونبيرغ مع أطباء الجزائريين كأطباء معالجين، وسجل ملاحظاتهم بدقة، واهتم بمعرفة المزيد عن طرق ووسائل العلاج، تخذوه في ذلك الرغبة في التعرف على هذه الطرق، ولم نسجل انتقاص شونبيرغ من شأن المعلومات التي ذكرها له هؤلاء الأطباء، رغم أنه كان من كبار الأطباء المتخرجين من الجامعات الأوربية في عصره، وقد لا نبالغ إذا قلنا أنه كان يتطلع أحيانا إلى الاستفادة من تلك المعلومات الطبية، ولهذا نجده يتأسف عن عدم تمكنه من معرفة اسم أحد النباتات المستعملة للعلاج بالجزائر.

ورغم الموضوعية التي اتصف بها شونبيرغ في سرد أغلب ما اطلع عليه وعائنه بنفسه، أو سمعه من غيره عن أسلوب الأطباء الجزائريين في علاج بعض الأمراض، إلا أنه كان متحاملا جدا فيما يتعلق ببعض الجوانب المتعلقة بأسلوب معيشة الجزائريين، فأورد تفسيرات مغرضة، كان الهدف منها وصف المجتمع الجزائري بالهمجية والانحلال الخُلقي من ذلك قوله: "إنّ فوضى الجزائريين أو إنحرافهم عن طريقة الحياة المألوفة يتسبب في انتشار الأمراض المزمنة هنا"، وقوله بأنّ: "الجزائريين ليسوا أقوياء دائما، وفوضى نظام معيشتهم تعود إلى طبيعة أخرى، وهي الإفراط في الممارسة الجنسية، وتعاطي المشروبات الروحية القوية"، التي كانوا يفرطون في تعاطيها وبشكل حيواني<sup>(3)</sup>.

وسأقتصر على ذكر بعض النماذج من التفسيرات التي طغت فيها النظرة الاستعمارية على المؤلف ومنها قوله: "تستقيظ الغريزة الجنسية عند الجزائريين في وقت مبكر، فيقبلون على إشباعها في وقت مبكر، فيكثر اللواط، وتشيع الممارسات الجنسية في المدارس... ولا يُجرّم على التركي أو الحضري أن يتخذ إلى جانب زوجاته عشيقة، أو عدد من العشيقات". ومن التفسيرات المغرضة تفسيره لإصابة الجزائريين ببعض الأمراض، كمرض البواسر كما في النص الموالي: "ويقال أنّ الحضريات يعانين من البواسير معاناة كبيرة، وهذا المرض انتشر بينهن انتشارا عاما، ولا يعود السبب في ذلك إلى الولادات المبكرة فحسب، وإنما يعود كذلك إلى الممارسات الجنسية غير العادية"<sup>(4)</sup>.

لقد جاء شونبيرغ إلى الجزائر مع الحملة الفرنسية؛ والتي يصفها "بالحملة الخالدة"، ولهذا علينا أن لا نستغرب ما نقرأه في كتابه من تعابير ومواقف دالة على موقفه

من المجتمع الجزائري، فهو لا يسمى الاستعمار استعماراً، وإنما يفضل نعته بـ "تغير الحكومة"، كما أنه أهمل ذكر أسماء الأطباء الجزائريين الذين تعامل معهم إلا طبيبا واحدا فقط، رغبة منه في تجاهلهم، رغم أنّ الطبيب صاحب أكبر صيدلية بمدينة الجزائر مكنه من معلومات مهمة وصادقة حسب تعبيره، في حين ذكر أسماء كل الأطباء الأوربيين الذين أشار إليهم في كتابه، وعددهم ثلاثة، والأغرب من ذلك عدم ذكره لاسم الداوي حسين، واكتفى بوصفه بـ "الداوي الأخير" و"الداوي المعزول".

### (ثانياً) - الأطباء والقابلات بمدينة الجزائر:

#### - الأطباء المحليون:

إنّ ما ذكره شونبيرغ فيما يخص الأطباء المحليين يختلف كثيرا عما ذكره غيره من الأوربيين<sup>(5)</sup>، الذين يُفندهم بقوله: "يُدعى الأوربيون عادة أنّ الأطباء الجزائريين لا يوجدون بالجزائر، وهذا ادعاء خاطئ كل الخطأ...". مؤكدا على وجود اثني عشر طبيبا محليا بمدينة الجزائر حينما كان بها<sup>(6)</sup>، وهذا رقم مهم جدا، إذا ما قورن بعدد سكان مدينة الجزائر آنذاك رغم أنّ جل المصادر الأوربية<sup>(7)</sup> التي زار مؤلفيها الجزائر خلال العهد العثماني، يُقللون من شأن الطب والأطباء المحليين، من ذلك لوجيي دي تاسي (Laugier de Tassy) الذي يذهب إلى أنّه: "لا يوجد أي طبيب لا في مدينة الجزائر ولا في أي ناحية من المملكة"<sup>(8)</sup>، ولا يختلف رأيه كثيرا عن رأي القنصل الأمريكي بالجزائر وليام شالير الذي ذهب إلى: "أنّ الطب نفسه لا يوجد من يدعيه، هذا إذا استثنينا المشعوذين وكتّاب الحروز"<sup>(9)</sup>.

ومن الكتاب الأوربيين الأكثر اعتدالا<sup>(10)</sup> في الحكم على وضع الطب والأطباء بالجزائر العثمانية هو الكاهن الإنجليزي شو (Shaw) الذي أكّد أنّ الطب بالجزائر لم يكن يسير وفق قوانين معينة أو مدارس، بل كان يعتمد على ما أُلْفَةُ العُرف، وبأنه لم ير بالجزائر إلا عددا قليلا من الأطباء، ولكنه اعترف بقدرة بعض الأطباء الجزائريين على المعالجة بالأعشاب<sup>(11)</sup>.

وفيما يخص المستوى التعليمي لأطباء الجزائر فيذهب شونبيرغ إلى أنّ جل الأطباء الذين وُجدوا بمدينة الجزائر عند الاحتلال لم يكونوا "يحسنون الكتابة، وكثيرا منهم لا يحسنون لا القراءة ولا الكتابة"<sup>(12)</sup>، ويعني قوله بعبارة أخرى أنّ جل أطباء الجزائر لم يكونوا يلتحقوا بالمؤسسات التعليمية القائمة بالجزائر آنذاك، كالكتاتيب، والمساجد والمدارس والزوايا لتقلي العلوم المتداولة بعصرهم، وأغلبها العلوم الشرعية، والحقيقة أنّ رأي شونبيرغ ليس دقيقا، ويكف أن نشير إلى أنّ الأطباء الذين ذكرهم هو بنفسه في كتابه هذا كانوا يُحسّنون القراءة والكتابة، أو القراءة فقط، حيث ذكر بأنّ الطبيب الأول في البلاد في عهد الداوي حسين كان يقرأ بصعوبة، ولكنه لم يكن يحسن الكتابة بشكل جيد، أما الطبيب إسماعيل بن محمد، فكان يحسن القراءة والكتابة، والدليل على ذلك إضافته معلومات طبية لمخطوط ابن سينا، كما أن الطبيب صاحب أكبر صيدلية بمدينة الجزائر، فكان يحسن القراءة على الأقل لأنه كان يعتمد في ممارسته للطب على مخطوط في الطب، ولا شك في أنّ جل الأطباء الذين كانوا يعتمدون على المخطوطات لممارسة الطب كانوا يتقنون القراءة أو القراءة والكتابة، وإلا كيف كانوا يقرأون تلك المخطوطات.

وذكر شونبيرغ بأنّ الأطباء الجزائريين كانوا: "يبدأون في الغالب بالحجامة، مثلما هو الحال في عدد من البلدان الأوروبية، فإذا وُفّق أحدهم في ذلك بدأ بمزج المراهم ووضعها فوق الجروح، وحين ينجحون في معالجة شخص ما ينتقلون لمعالجة الأمراض الداخلية، ويأخذون إجازتهم فيها " من الطبيب الأول " وفي استطاعتهم أن يوزعوا الأدوية إن هم أرادوا ذلك"، وهكذا يؤكد شونبيرغ بأنّ الأطباء المحليين كانوا يحصلون على إجازة لممارسة مهنة الطب من الطبيب الأول الذي كان "يُجيز كل أطباء البلاد في مقابل مبلغ زهيد يتجاوز أربع قروش"<sup>(13)</sup>.

وفي كتاب "الطب الشعبي" إشارة إلى خمسة أطباء محليين، أربعة منهم بمدينة الجزائر وواحد بوهران، إلا أنّه لم يذكرهم بأسمائهم إلا واحدا منهم، وهو الطبيب إسماعيل بن محمد، فأما أطباء مدينة الجزائر فهم: الطبيب الأول في البلاد، والطبيب إسماعيل بن محمد،

والطبيب صاحب صيدلية صغيرة بمدينة الجزائر، والطبيب صاحب أكبر صيدلية بمدينة الجزائر.

تحدث ألبير فون شونبيرغ عن الطبيب الأول<sup>(14)</sup> في عهد حسين داي - آخر دايات الجزائر - رغم أنه لم يلتق به، فذكر بأنه كان يتردد كثيرا على حسين الداوي، ولكن الداوي لم يتركه يعالجه أبدا، و"كان هذا الرجل فيما يُقال يقرأ بصعوبة، ولكنه لم يكن يُحسن الكتابة بشكل جيد، ورغم ذلك فقد كانت له الكلمة الأخيرة في الأحوال القضائية الطبية، وكان رأيه حاسما مثلا في قضايا القتل الناتج عن إلحاق جرح بأحد، وعلى الوسيلة التي استعملت فيه، وكان بذلك ينتمي إلى أصحاب الجاه والنفوذ"، ومن صلاحيات الطبيب الأول إجازة "كل أطباء البلاد في مقابل مبلغ زهيد يتجاوز أربع قروش"<sup>(15)</sup>.

أما الطبيب إسماعيل بن محمد فيُعد أحسن أطباء الجزائر في نظر الدكتور شونبيرغ<sup>(16)</sup>، وبما أنّ هذا الأخير جاء إلى الجزائر ضمن الحملة الفرنسية، فإنّ الأطباء الجزائريين كانوا يتحفظون في التعامل معه عدا الطبيب إسماعيل، وقد ذكره شونبيرغ بقوله: "يعتبر إسماعيل بن محمد الطبيب الوحيد من الأطباء الجزائريين، الذي استطاع أن يخلق حوله جوا من الثقة"، ويبدو أنّ علاقته بشونبيرغ كانت حسنة لدرجة أنّه قدم له مخطوطة عربية في الطب، وهي خلاصة لأحد كتب الطبيب ابن سينا، وقد أضاف الطبيب إسماعيل لهذه المخطوطة ملاحظاته الخاصة، وزوّدها بأسماء الأدوية المستعملة في أيامه، عوّض الأدوية التي كانت مستعملة في أيام ابن سينا، وهذه المخطوطة "قيمة ومفيدة" حسب شونبيرغ لأنّها تقدم دليلا على مدى ما وصل إليه الطب في ذلك الحين، وتوضّح الأساس الذي يقوم عليه الطب الآن في الجزائر، ولهذا تأسف كثيرا على ضياعها، حيث سلّمها بعد عودته إلى كوبن هاجن إلى صديقه العالم اللغوي الأستاذ راش ليرجمها له، ولكن الموت اختطفه فلم تظهر تلك الترجمة، ولم يستطع شونبيرغ الحصول على المخطوطة من بين مخلفاته<sup>(17)</sup>.

كان شونبيرغ يتردد على الطبيب إسماعيل بن محمد بصيدليته، ويحاوره بشأن الطب في الجزائر، وقد أورد في كتابه الكثير من المعلومات الطبية التي أفاده بها هذا

الطبيب، وحصل منه بالإضافة إلى المخطوطة التي أشرنا إليها على قائمة بأسماء الأدوية التي تحتوي عليها صيدليته، ولكن شونبيرغ سلمها هي الأخرى لصديقه المذكور ليترجمها له من اللغة العربية فضاعت كما ضاعت المخطوطة.

يؤكد شونبيرغ على مهارة الطبيب إسماعيل في الطب من خلال أمثلة، منها تمكنه من علاج حالة مرضية عجز عن علاجها العديد من الأطباء، وذلك ما شاهده شونبيرغ بنفسه، فقد ظهر لرجل تركي مسن دمل في ذراعه، فزار الكثير من الأطباء، إلا أنهم كانوا يؤكدون له على أنه لم يبق دواء لعلاج مرضه إلا بتر الذراع، بما فيهم الطبيب الإسباني أسانسي (ASSENSI)، وعندما زار الطبيب إسماعيل كانت البشرة والعضلات قد تاكلت حتى العظم، ومع ذلك أكد له هذا الأخير أنه لا داعي للبتر، ونجح بالفعل في علاجه، وشفي المريض تماما من مرضه، واختفت آثار الجرح<sup>(18)</sup>.

ومن الأطباء الذين كان يتردد عليهم شونبيرغ بصيدلياتهم طبيب كان يمتلك صيدلية صغيرة بمدينة الجزائر، ذكره في كتابه، ولكنه لم يذكر اسمه، ووصف صيدليته بأنها صيدلية صغيرة، وبأنها "صيدلية تركية حضرية، صاحبها بيطري وجراح وصيدي"، ولا يُستبعد أن يكون هذا الطبيب من أصول تركية، وإلا لما وصف شونبيرغ صيدليته بكونها "صيدلية تركية"، وقد حاوره شونبيرغ بشأن الطب بالجزائر، فأفاده بمعلومات مهمة عن الأدوية مستعملة في الجزائر<sup>(19)</sup>.

كما التقى شونبيرغ بالطبيب صاحب "أكبر صيدلية في الجزائر"، "ولم يكن صاحبها صيدليا فحسب، وإنما كان كالعادة طبيبا وجراحا، ويُعتبر من أمهر الأطباء بالجزائر-حسب شونبيرغ- خاصة وأنه يمتلك فيما يُقال كتابا ممتازا، وهو مخطوطة عربية تحتوي على 180 صفحة من الحجم الكبير"، وقد أكد هذا الطبيب لشونبيرغ "أنَّ المخطوطة تحتوي على كل ما يحتاج إليه الإنسان لمعرفة الأمراض البشرية والأدوية المناسبة لمعالجتها".

تحدث شونبيرغ مع هذا الطبيب الجراح الصيدي عن الطب بالجزائر، فأفاده ب "معلومات كثيرة صادقة"، وأراه الأدوات والأجهزة الجراحية التي كان يمتلكها، حيث

كانت له علبة تحتوي على "كُلابٍ لتثبيت الأجزاء أثناء العمليات، وملقط، وبضعة مسامير، وكان في حقيبته مقص وملقط... وكلها من صنع الأوربيين، ولكنها كانت قديمة، ومن نوع متوسط"، وقد ذكر شونبيرغ بعض طرق العلاج المستخدمة من طرف هذا الطبيب منها طريقته الخاصة في معالجة مرض الزهري، مؤكداً على أنّ هذا الطبيب قد أجرى "عدة تجارب للتأكد من فعالية أدويته ونجاحتها، وفي استطاعته أن يُعيد هذه التجارب في أي وقت شاء"<sup>(20)</sup>.

### - الأطباء الأوربيون:

وردت في كتاب "الطب الشعبي" الإشارة إلى ثلاثة أطباء أوربيين، وكانوا يُقيمون بالجزائر لخدمة مصالح بلدانهم بها، وكانوا بالإضافة إلى ذلك يُواصلون بحوثهم بالجزائر، ويقدمون خدمات طبية لكبار موظفي الدولة مقابل أموال. أحد هؤلاء الأطباء هو الطبيب الإسباني أسانسي (ASSENSI)، وهو طبيب في المستشفى الإسباني بمدينة الجزائر<sup>(21)</sup>، وكان خلال فترة إقامته بالجزائر يواصل بحوثه في مجال الطب، من ذلك بحثه في الأمراض العصبية الذي أشار إليه شونبيرغ في هذا النص: "وتكثر في الجزائر الأمراض العصبية، وهي قاتلة في العادة... وتتمثل بشكل خاص في تشنج العضلات والكزاز الفكي، وهو أخطر الأمراض في الجزائر، ينتهيان عادة بالموت... ولكن أسبابها كثيراً ما تكون غير معروفة أيضاً... وقد حدثني الدكتور أسانسي (ASSENSI) الذي كان في السابق طبيباً خاصاً لملك إسباني، ومارس مهنته في الجزائر أكثر من مرة، ولفترة طويلة، أنه بذل جهداً كبيراً في البحث عن أسباب هذه الأمراض"<sup>(22)</sup>.

كان أسانسي يقدم بعض الخدمات الطبية لبعض رجال الدولة بما فيهم الداوي، من ذلك استعانة الداوي به للتأكد من إصابة بعض البحارة بمرض الطاعون، وذلك ما يؤكد النص الموالي: "رأى الدكتور أسانسي الطاعون يحصد أرواح الناس خلال أربع سنوات، وكان قد حُمل من الإسكندرية، وأُعيد من الميناء سبعة أشخاص، كانوا قد حملوه معهم، وقد استدعى الداوي الدكتور أسانسي، وطلب منه أن يتأكد من أنه الطاعون"، ولما "تأكد الدكتور أسانسي بعد حين أنه الطاعون... أخبر الداوي بأن الطاعون قد بدأ ينتشر"<sup>(23)</sup>.

وهناك إشارة أخرى إلى استفادة الوزير الأول من الخدمات الطبية لأسانسي، وقد نصحه هذا الأخير بالذهاب إلى حمام معدني بعد أن فشلت كل الأدوية الأخرى، فذهب إلى حمام معدني، فشُفي من مرضه<sup>(24)</sup>.

ومن الأطباء الأوربيين الذين أشار إليهم المؤلف الطبيب الإنجليزي بوهن (BOHEN)، أقام هذا الأخير بالجزائر، واستفاد من خدماته الطبية بعض رجال الدولة بما فيهم الـداي حسين، وذلك ما ورد في هذا النص: "أرسل الـداي الأخير معزول بأولاده وأسرته إلى طبيب إنجليزي يدعى بوهن (BOHEN) لتطعيمهم ... ونجحت عملية التطعيم نجاحا كاملا، ونالت رضا الـداي أيضا ... وقد حدث فيما بعد أن عالج الطبيب نفسه أسرة وزير البحرية".

وثالث هؤلاء الأطباء هو الطبيب السرديني مياردني (MEARDI)، الذي قدم هو الآخر خدمات طبية لبعض الجزائريين، وهناك نص يشير إلى معالجته لجنود جزائريين: "... وعالج طبيب سرديني وهو الدكتور مياردني (MEARDI) عشرين مريضا، كانوا قد جرحوا في إحدى المعارك، بأمر من الـداي، واستمر العلاج حوالي ثلاثة أشهر"<sup>(25)</sup>.

#### - القابلات:

يذهب شونبيرغ أنّ عدد القابلات في مدينة الجزائر كبير، وهنّ " إما عربيات أو يهوديات"، والعربيات يتعاملن مع التركيات وبقية المسلمات، أما اليهوديات فيتعاملن مع اليهوديات والمسيحيات، ولكنه يرى أن القابلات اليهوديات أفضل من القابلات العربيات، "وقد نالت بعضهن شهرة كبيرة، ولكنهن لا يختلفن عن العربيات في عملهن، ولا في خبرتهن"، مؤكداً أن القابلات اليهوديات والعربيات لم يلتقين أي تعليم لهذه المهنة إلا من الوسط العائلي، وتنتقل هذه المهنة "بالوراثة من الأم إلى البنت، أو من الحماة إلى الكنة"، ويكتسبون الخبرة من ممارسة المهنة، "على حساب حياة الناس" - حسب شونبيرغ- ذلك أنّهن "يبدأن ممارسة عملهن مع الطبقات الفقيرة".

ويؤكد شونبيرغ أنه عرف عددا من المسيحيات راضيات عن عمل اليهوديات، وقد اتصل هو بنفسه بأبرز قابلة يهودية بمدينة الجزائر آنذاك، فأكدت له هذه الأخيرة بأنها لم

تتلق أي تعليم لمهنتها، وبأن ممارسة هذه المهنة تقوم عندهن "على محض التجربة، وفرن القابلة ينتقل... بالوراثة من الأم إلى البنت، إلى الحفيدة، والأم هي التي تمتحن البنت، وفيما عدا ذلك فإنهن لا يؤدين أي امتحان". وقد أبدى المؤلف استغرابه من إعفاء السلطة للقابلات من دفع الضريبة، بحيث كُنَّ "يمارسن عملهن بكل حرية، ولذلك يوجد عدد كبير من القابلات في الجزائر"، وقد أكدت له القابلة اليهودية المذكورة بـ "أنَّ عددن لا يحصى".

وهنا ينبغي أن نشير إلى أنَّ المؤلف لم يذكر أسماء لبعض القابلات، حتى أنه لم يذكر اسم تلك القابلة اليهودية التي حاورها، والتي أفادته بالكثير من المعلومات عن مهنتها، وقد كانت هذه الأخيرة تحظى بشهرة كبيرة إلى درجة أن التركيات والعربيات كانوا يستدعينها عند الولادة، وكانت فوق ذلك تستدعى من طرف زوجات القناصل واليهوديات، وكانت "تمارس ما يراوح مائة وثلاثين، ومائة وخمسين ولادة في السنة، كان القسم الأكبر منها طبيعياً وفي منتهى السهولة، ومن بين مائة ولادة لا تتطلب إلا ثلاث أو أربع منها استعمال الفن الطبي... التي تنحرف عن الولادة الطبيعية... ومع ذلك فإنَّ هذه الولادات وغيرها من الولادات التي تتطلب المساعدة الطبية تنتهي بسهولة... وتقل الوفيات بين النوافس والمواليد بصورة عامة... ومن النادر كذلك أن يموت الأطفال بعد الولادة مباشرة" (26).

### (ثالثاً) - الطب والتطبيب بمدينة الجزائر:

#### - المنشآت الطبية:

نجد في كتاب " الطب الشعبي " إشارات إلى نوعين من المرافق الطبية أو الصحية بمدينة الجزائر وهي: المستشفيات والصيدليات. فأما المستشفيات فهي ثلاثة: المستشفى العربي، والمستشفى الإسباني، والمستشفى الفرنسي. يقع المستشفى العربي أو الحضري أو الإسلامي - وكلها تعابير استعملها شونبيرغ - أمام باب الوادي، ويتكون من " قاعة ضيقة مستطيلة"، وعندما استولى عليه الفرنسيون في جويلية 1830م، لم يكن يحتوي على أسرة وإنما كان المرضى ينامون فوق الحصائر.

أمّا المستشفى الفرنسي فقد أنشئ من طرف البارون الفرنسي إيجيون (Eguillon)، وخصص له مبلغا كبيرا، ووصل مدخوله السنوي إلى أربعة آلاف فرنك، وكان يقيم فيه ثلاثة رهبان يعيشون عيشة "رغيدة"، ويخصصون المبلغ المذكور لمساعدة الأسرى الفرنسيين والعناية بهم، وكانت لهم علاقة طيبة برهبان المستشفى الإسباني، إلا أنّ هذا المستشفى اختفى بعد حملة اللورد إيكسماوث على الجزائر.

وثالث المستشفيات التي ذكرها شونبيرغ هو المستشفى الإسباني الذي أنشئ في أيام فليب الثاني، من أموال التبرعات التي أرسلها أغنياء إسبانيا إلى الأسرى المسيحيين بالجزائر، ومن رسوم السفن المقررة لذلك، أما موقعه فهو ليس جيد حسب شونبيرغ، "وكان في وقته يتسع لمائة وأربعين مريضا"، إلا أنّ القائمين عليه كثيرا ما كانوا يضطرون "إلى قبول عدد أكبر من ذلك بكثير... وكانت إدارة المستشفى تتكون من ثلاثة أو خمسة في بعض الأحيان من الرهبان، وفوق ذلك كان للمستشفى طبيب، وجراح، وصيدلي، وكان مجهزا بالآلات والأدوية ومخبر كيميائي، لأنّ مداخيله كانت معتبرة"، اختفى هذا المستشفى هو الآخر بعد حملة اللورد إيكسماوث على الجزائر، فاستولت "الحكومة الإسبانية على محتويات المستشفى الهامة، بينما استولى الداوي على البناية، ولكنه لم يجعلها مستشفى" (27).

وفيما يخص الصيدليات فيذكر شونبيرغ "أن مدينة الجزائر تحتوي رغم معارضة الرأي العام على عدد من الصيدليات العربية وعددها الآن ستة، وهذه الصيدليات متوسطة بطبيعة الحال، وكانت قد أغلقت لفترة قصيرة بعد تغير الحكومة (الاحتلال)، ولا تحتوي إلا على قليل من الأدوية، أغلبها من الأنواع المثيرة والمقوية" (28)، يثير انتباهنا في النص المذكور عبارة "رغم معارضة الرأي العام"، وهي العبارة التي لم يوضحها المؤلف.

لقد زار شونبيرغ عدد من الصيدليات بمدينة الجزائر، واطلع على محتوياتها، منها صيدلية تركية حضرية، صاحبها بيطري وجراح وصيدلي، وكانت صيدليته صغيرة، وهي عبارة عن غرفة واطئة، ومظلمة إلى حد ما، وتوجد بها أيضا غرفة الطبيب، وهي حسب تعبير شونبيرغ: "لا تعدوا أن تكون مغارة، وتعتبر ابتداء للصيدلية"، كما زار شونبيرغ

صيدلية أخرى، يقال أنها أكبر صيدلية في مدينة الجزائر، ولم يكن صاحبها صيدليا فحسب، وإنما كان كالعادة طبيبا وجراحا، "ويعتبر من أمهر الأطباء".

كانت الصيدليات تؤدي دور العيادة والصيدلية، بحيث كان المريض يأتي إلى الطبيب في صيدليته لتلقي العلاج وللإشارة الطبية، فيلقي عليه الطبيب عدة أسئلة، ويفحصه حسب حالته، وذلك ما شاهده شونبيرغ عندما كان في صيدلية الطبيب صاحب الصيدلية الكبيرة، وذلك ما نجده في النص الموالي: "جاء تركي... إلى الطبيب لاستشارته، فألقى إليه الطبيب عدة أسئلة، وفحص لسانه من الجهة السفلى، وجس نبضه للحظة، ثم قال له أنه سيقدم له دواء ثمنه كذا وكذا" (29).

### – الأدوية والمستحضرات الطبية:

نجد في الكتاب معلومات مهمة تتعلق بالأدوية والمستحضرات الطبية بالجزائر، من ذلك ما ذكره المؤلف من أنّ الأدوية المعتمدة من طرف الأطباء الجزائريين أنواع وهي: المسهلات، المقيئات، الكينين<sup>(30)</sup>، وبأنّ الأطباء المحليين لا يلتزمون بالمقادير عند إعداد الأدوية بقوله: " وطريقة إعدادهم لهذه المستحضرات ليست تجريبية فحسب، وإنما هي خاضعة للصدفة أيضا، إذ يأخذون كمية كبيرة طورا، وكمية صغيرة طورا آخر، دون أن يهتموا بالإرشادات المتعلقة بالوصفات الكبيرة والصغيرة" (31). كما ذكر - اعتمادا على ما سمعه من الأطباء الجزائريين - بأنّ الأدوية المقوية والمثيرة، هي من أكثر الأدوية استعمالا في الجزائر، " ولكنها تستورد من أوروبا، على غرار أغلب الأدوية الأخرى، وتنحصر الأدوية المستحضرة في الجزائر في بعض السوائل، وبعض الأخلاط والعقاقير"، وعندما سأل شونبيرغ الطبيب صاحب الصيدلية الصغيرة عن الدواء الذي يكثر استعماله بالجزائر، أجابه بأنّ لكل مرض دواءه الخاص به" (32)، مفندا بذلك ما ذكره الطبيب الألماني هابنسترايت من أنّ الجزائريين لا يعرفون بأنّ لكل مرض دواءه الخاص به.

ولم يفت شونبيرغ الإشارة إلى ما أسماه ب" الأدوية السرية"، ومؤكدا على أنّ الأتراك والعرب والحضر يفضلون هذا القسم الثاني من الطب، فهو الأهم عندهم، بحيث تقرأ تعاويد معينة، وكلمات مهمة بصيغة بالفاظ غامضة تلفظ، وآيات قرآنية تختار، وتكتب أو

تقطع وتقطع قطعاً صغيرة، وتوضع في حرز، يعلقه المريض حول عنقه، وقد ذكر المؤلف أنه رأى في " الجزائر رجالاً يعتبرون من العقلاء والأذكاء يحملون في أعناقهم مثل هذه الحروز لتقيهم من هذا الشر أو ذلك، ويدعون بصدق وإخلاص أنهم قد شفوا تماماً من مرضهم بواسطة تلك الحروز"<sup>(33)</sup>.

### – مدى كفاءة الأطباء الجزائريين في العلاج :

كان ألب فون شونبيرغ يتردد على الأطباء الجزائريين، ويتحاور معهم ويسجل ما يتلاقاه منهم من معلومات تتعلق بالطب وبطرقهم في العلاج، ورغم أنه كان من أهم الأطباء في عصره، إلا أنه لم يقلل من شأن المعلومات الطبية التي كان يقدمها له هؤلاء الأطباء، وإذا عقب عليها يكون تعقيبه علمياً، وقد كان موضوعياً علمياً في هذا الجانب، من ذلك قوله: "ففي الربيع تنتشر أمراض ذات طبيعة التهابات الرئة، والنزيف، والإسهال وغير ذلك، وعندما سألت الأطباء الجزائريين عن أثر الربيع في الأمراض، أجابوا بأنّ الدماء تسخن في هذا الوقت من السنة"<sup>(34)</sup>.

ولم يتردد شونبيرغ في ذكر الأمراض التي كان الأطباء الجزائريين ينجحون في علاجها، منها طريقة علاجهم للحروق والدمامل، وذلك ما ورد في النص الموالي: "يقال أنّ طريقة الأطباء والجراحين المحليين في معالجة الحروق والدمامل ناجحة كل النجاح، وخاصة معالجتهم لها عن طريق دواء لا يريدون التصريح باسمه"، ثم أضاف قائلاً: "وما من دمل إلا ويكوى بنيترات الفضة، أو بالسكر والحديد الساخن... وبعد ذلك يتناولون نباتاً يشبه النجيل، ولكنه فيما يقال ليس هو عينه، يعصرونه ويجففون ماءه، وعندما يجف يتحول إلى مسحوق ناعم، يذر فوق الدم... والمسحوق نفسه رمادي اللون... ولكن نجاعته لا مثيل لها"، وقد تأسف شونبيرغ عن عدم معرفته لهذه النبتة بقوله: "وأنه ليؤسفني أن أكون قد حُرِّمت من مشاهدة هذه النبتة... فهذه النبتة - وهنا حمل الغرابة - تزيل آثار الدمامل والقروح، بحيث لا يكاد يبقى منها شيئاً".

وأورد مثلاً عن نجاعة العلاج بواسطة هذه النبتة، فذكر مريضاً شفيت يده، وزال أثر الحروق بعد أن عالجه طبيب عربي بتلك النبتة، والمريض هو أميرال يسمى مارتينينو

(MARTINENO) كان في الساحل الإفريقي قبل احتلال الجزائر ببضع سنوات، وإنحرف إبهام يده اليمنى "بصورة أصبح معها العظم الأسفل من الأصبع عاريا"، فاستدعى طبيبا عربيا لمعالجته، فأكد له ذلك الطبيب بأنَّ الحرق بسيط، وأن يده ستعود إلى ما كانت عليه، وذلك ما حدث بالفعل، حيث شفيت يد المريض، وزال أثر الحروق بعد مرور ثلاثة أسابيع بفضل طريقة العلاج المذكورة<sup>(35)</sup>. ويشير شونبيرغ في هذا الصدد إلى أنَّ الأطباء الجزائريين كانوا حريصين على التكتّم بشأن تلك النبتة، رغبة منهم في الاحتفاظ بأسرار مهنة الطب، ولكن الأرجح أنهم أخفوا عنه سرّها نُفورا منه لأنه جاء بلادهم مع جيش المحتل.

وأكد شونبيرغ مرات عدة على نجاح الأطباء الجزائريين في معالجة بعض الأمراض بقوله: "لا شك أنَّ للعرب على الإطلاق طرقا وأدوية ناجعة في معالجة أمراض معينة بالجزائر، وفي مناطق أخرى من البلاد، وقد تأكد الدكتور أسانسي من ذلك، ولا سيما فيما يتعلق بأمراض النقرس، والمفاصل، وأوجاع الحصوة"، وقد ذكر الدكتور أسانسي لشونبيرغ أنه عالج عددا من المرضى لفترات طويلة، واستعمل في علاجهم كل الأدوية المعروفة، ولكنه لم يصل إلى أية نتيجة محسوسة، فانقطع عنه المرضى، وذهبوا للعلاج في المناطق الجبلية، فعاد المرضى الذين كانوا يُعانون من النقرس وأوجاع المفاصل، وقد شفوا كلهم تماما، بينما تحسنت أوضاع المصابين بالحصوى، ولكنهم لم يتخلصوا منها نهائيا"<sup>(36)</sup>.

كما ذكر شونبيرغ عددا من طرق العلاج غير الصحيحة والمعتمدة من طرف بعض الأطباء الجزائريين، فذكر مثلا طريقتهم في علاج الزهري بقوله: "وهم لا يعرفون طريقة الإثارة اللعابية، التي كثيرا ما تستعمل عند العلاج السريع في عدد من البلدان الأخرى... عن طريق الإكثار من استعمال الزئبق بكميات كبيرة في أوقات غير مناسبة، وعندما تحدث فإثما لا تثير الفزع في نفوس المرضى فقط، وإنما كذلك في نفوس الأطباء الذين لا يعرفون عندئذ ما يفعلون، ويحاولون الإستعانة بالأطباء المسيحيين إن وجدوا"<sup>(37)</sup>.

وتعد أمراض العيون من الأمراض التي كان الأطباء الجزائريين يخفقون في علاجها حسب شونبيرغ في قوله: "ليس للجزائريين طريقة خاصة في معالجة أمراض العيون، ليست

غير كافية فحسب، وإنما هي مضرة في أغلب الأحيان، والدليل على ذلك كثرة العميان الذين يلتقي المرء بهم في الجزائر<sup>(38)</sup>، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هناك من الأوروبيين من أشار إلى تمكن الأطباء الجزائريين من معالجة أمراض العيون كهلتون سامبسون (Hilton Sompson) في قوله: "ولهم دراية أيضا بطب العيون"<sup>(39)</sup>.

وفيما يخص العمليات الجراحية فيذهب شونبيرغ إلى أن الأطباء الجزائريين لم يكونوا أكفاء في الجراحة بقوله: "أن الأطباء والجراحين المحليين ليست لهم معارف كافية تتعلق بالجراحة والتشريح، كما أنهم ليست لديهم الآن (إمكانيات)<sup>(40)</sup>، تسمح لهم بالقيام بالعمليات الجراحية كما نقوم بها نحن في أوروبا". وأشار إلى إخفاقهم في علاج بعض الحالات المرضية عن طريق الجراحة، كالعلاج عن طريق البتر الذي يتم في الجزائر "بطريقة تعتبر أبعد ما تكون عن الفن"، حسب تعبير شونبيرغ، فغالبا ما يوضع العضو المريض فوق مائدة، ثم يقطع بسيف، ثم يحرق بالحديد الساخن، أو يغمس في قار سائل، وبذلك تنتهي العملية الجراحية.

كما ذكر أنّ ما يُسمى بالفصد بالجزائر ليس هو الفصد المتعارف عليه، وإنما هي نوع من الشطب ويستعملونها في أماكن مختلفة من الجسم، وخاصة في الجبين، وفي الصدغين والرجلين بل القدمين، ويُجرون هذه العملية بواسطة موس حلقة حادة يشطبون بها... وهم يتجنبون مع جهلهم إصابة الشريان الصدغي، وهذه العملية بعيدة عن أن تكون عملية استئصال الشريان"<sup>(41)</sup>.

وقد تحدث شونبيرغ عن أحد الجراحين الجزائريين، وهو الطبيب صاحب أكبر صيدلية بمدينة الجزائر، والذي كان "كالعادة طبيبا وجراحا، ويعتبر من أمهر الأطباء"، وكانت لديه بعض الأدوات الأساسية التي تستخدم للجراحة، ومنها "علبة نحاسية، مستطيلة طولها ربع ذراع، مقسمة في داخلها إلى خمسة أقسام معبأة بالمراهم"، ثم أضاف قائلا: "إنّ علبة من هذا النوع بالإضافة إلى معدات التضميد في أحسن الظروف هي كل ما يحمله الجراح عندما يمضي إلى المعركة"<sup>(42)</sup>.

وأورد المؤلف حوارا له مع الطبيب صاحب الصيدلية الكبيرة أكد من خلاله على عدم تمكن الأطباء الجزائريين من الجراحة، وهو قوله: "إنَّ عملية نزع الحصوى وغيرها من العمليات المهمة لا تجرى في الجزائر، وإذا أُجريت وهذا لا يحدث نادرا، فإن الجراحين الأجانب هم الذين يقومون بإجرائها، وذلك رغم أن هناك في رأيه - أي الطبيب صاحب الصيدلية الكبيرة- من يستطيعون إجراء مثل هذه العمليات، لأنَّ ظروفهم المادية تسمح لهم بذلك"، وقد أرى هذا الطبيب لشونبيرغ "حقيته الطبية التي كانت تحتوي على أجهزة وضمادات جيدة من صنع أوربي" (43).

ويذكر شونبيرغ على لسان الطبيب صاحب الصيدلية الكبيرة أنَّ قلة إقبال الجراحين الجزائريين على إجراء العمليات الجراحية لا يعود إلى عدم تمكنهم من إجرائها، وإنما يعود إلى إعراض الناس عن دفع المستحقات المالية لهؤلاء الجراحين.

#### - المردود المادي لمهنة الطب بالجزائر:

لم تكن مهنة الطب مهنة مربحة بالجزائر حسب شونبيرغ، فلم يكن الجزائريون يدفعون للأطباء المحليين إلا مبالغ مالية قليلة، وعندما سأل الطبيب إسماعيل بن محمد عن المبلغ الذي يتقاضاه سنويا، بصفته طبيبا صيدلانيا، أجابه بأنَّه من الصعب تحديد ذلك، لأن دخله يتغير كثيرا، ولكنه أكد له أنه يكسب ما يكفيه ولا يزيد عن حاجته (44). كما تحدث شونبيرغ عن الجراحين الذي كانوا يرافقون الجيش في حروبه، فذكر أنَّ عددا منهم حضروا ما نعته هو ب " الحرب الأخيرة" - والتي تُرجح أنَّها من الحروب التي خاضها الجزائريون لمواجهة الحملة الفرنسية- وعددهم سبعة جراحين، وذكر أنَّ " روايتهم قليلة جدا، فهي لا تختلف عن راتب الجندي... ليس بينهم من يتقاضى راتبا كبيرا".

ويذكر شونبيرغ على لسان الطبيب صاحب الصيدلية الكبيرة أن العمليات الجراحية لا تُجرى كثيرا في الجزائر لأن الناس لا يدفعون ثمنها، كما أن الأطباء لا يستوردون الأدوية بكثرة من أوروبا لأن الناس لا يدفعون ثمنها أيضا، وذلك ما نقرأه في هذا النص: " وقد ادعى هذا الطبيب أن العمليات الجراحية كثيرة وتجرى في الجزائر، إلا أنه لا يوجد هناك من يرغب في دفع ثمنها، فالعملية التي يدفع الإنسان في أوروبا مئة قرش ثمنا

لها، فإن المرء لا يكاد يتلقى في مقابلها بوجو واحد، وكذلك الأمر بالنسبة لمعالجة الأمراض الداخلية، وليس هناك جزائري واحد يرضى بدفع ثمن الأدوية، لذلك قلما يستوردها الطبيب والصيدلاني، لأنها نادرا ما تستعمل".

وتعد الهدايا إحدى المصادر المالية للأطباء المحليين، فحينما يعالج الطبيب أحد كبار رجال الدولة ويشفى فإنه ينتظر هدية منه، وذلك ما ورد في النص الموالي: "وعندما يمرض أو يجرح واحد من هؤلاء السادة الكبار وينجح الطبيب في معالجته فإن من حق الطبيب أن ينتظر هدية منه، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يطلب منه ذلك". ومما ذكره شونبيرغ فيما يخص ثمن العلاج قوله: "وفي غالب الأحيان لا يدفع المرء بعد الانتهاء من المعالجة الداخلية إلا مبلغا زهيدا، وكثيرا ما يُشفى المريض دون أن يدفع ثمن العلاج، وإذا مات المريض فإن الطبيب لا يستلم شيئا، لأن المرء لا يدفع إلا ثمن علاج واحد"<sup>(45)</sup>.

علينا أن نشير في هذا الصدد أن ملاحظات شونبيرغ فيما يخص المقابل المالي للعلاج يجب أن تأخذ بتحفظ كبير، لأنه يروي ما شاهده في فترة عصيبة من تاريخ الجزائر، وهي فترة تعرضها للاحتلال الفرنسي، وقد تغيرت الأوضاع المالية للجزائريين وفقد الكثير منهم ممتلكاتهم.

ويذهب شونبيرغ أيضا إلى أنّ حسين داي وكبار رجال دولته لم يكونوا يدفعون للأطباء الأوربيين حقوقهم المالية كاملة مقابل الخدمات الطبية التي كانوا يقدمونها لهم، وساق عدة أمثلة على ذلك، من ذلك أن حسين الداى أرسل بأولاده وأسرته إلى الطبيب الإنجليزي بوهن لتطعيمهم، "ونجحت عملية التطعيم نجاحا كاملا، ونالت رضا الداى أيضا، فأرسل بعدئذ للسيد بوهن مبلغا لا يستطيع المرء أن يفهم كيف قبل طبيب إنجليزي مثل هذا المبلغ من الداى".

وذكر مثالا آخر وهو أن الطبيب بوهن عالج مرة أسرة وزير البحرية، وتلقى مبلغا مماثلا، وعندئذ غضب وأعاد المبلغ إلى مرسله، فاستدعى الداى القنصل الإنجليزي، وطلب منه أن يطرد السيد بوهن، إلا أن القنصل أبلغه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، وبأنه سيعلمه بأن عليه لأن يعيد المال مرة أخرى، وفي نفس الوقت قال القنصل للداى بأن عليه

أن يدفع للطبيب مبلغا مناسباً، فأجابته الداوي بأن الطبيب بوهن لم يكن مؤدباً، وكانت نتيجة ذلك حسب شونبيرغ " أن السيد بوهن بقي فترة أخرى في الجزائر، ولكنه لم يتلق أجره".

وساق شونبيرغ مثالا آخراً عن تقصير حسين داوي في دفع المستحقات المالية للأطباء الأوربيين إثر الاستفادة من خدماتهم، وهي أن الطبيب السرديني مياردي كان قد عالج بأمر من الداوي عشرين جندياً، كانوا قد جرحوا في إحدى المعارك، واستمر في علاجهم حوالي ثلاثة أشهر، وبعد انتهاء العلاج استلم ثلاثين قرشاً، وبعد أن ذكر شونبيرغ هذه الرويات قال: "... وهكذا كان الداوي يعامل جميع المسيحيين، ولم يكن بخله يعرف الحدود على الإطلاق، ولا شك أن هذه الرذيلة كانت أيضاً من أسباب سقوطه"<sup>(46)</sup>.

ليس لدينا معلومات كافية لنفند ما ذكره شونبيرغ فيما يخص إجحاف حسين داوي ورجال دولته في دفع المستحقات المالية للأطباء الأوربيين، إلا أن بعض الكتاب الأوربيين ومنهم هابنسترايت الذي زار الجزائر عام 1732م ذكروا بأن الجزائريين بما فيهم الداوي كانوا يدفعون بسخاء للأطباء الأوربيين<sup>(47)</sup>.

### – الطاعون والحجر الصحي:

لا يوجد بالكتاب إلا إشارات قليلة عن الطاعون بالجزائر، وقد أكد شونبيرغ بأنه: " لا يوجد الطاعون في الأصل بالجزائر، وإنما يحمل إليها من القسطنطينية، والإسكندرية وأزمير، أو غيرها من مدن الشرق، وعندئذ يجتاح البلاد بسرعة جنونية، وكثيراً ما يرى المرء الناس يموتون في الشوارع، ويستمر في بعض الأحيان فترة طويلة"، وذكر أيضاً أن " الدكتور أسانسي رأى " الطاعون يحصد أرواح الناس خلال أربع سنوات"، وكانت العدوى به قد انتقلت إلى الجزائر من الإسكندرية، " وأعيد من الميناء سبعة أشخاص، كانوا قد حملوه معهم، فاستدعى الداوي الدكتور أسانسي، وطلب منه أن يتأكد من أنه الطاعون، الذي يطلق عليه اسم الجبوبة بالجزائر، وعندما تأكد أسانسي من أنه الطاعون، أخبر الداوي، وقال له بأن الطاعون لا يزال في أماكن يمكن الحد من انتشاره والتحكم فيه، ما دام قد انحصر حتى ذلك الحين في ملاححي الباخرة الذين حملوه معهم، وكان الداوي مقتنعاً برأي أسانسي،

غير أنه لا يستطيع أن يتأخذ قرار الحجر الصحي قبل أن يأخذ رأي الديوان، ولما اجتمع الديوان لدراسة الأمر، عارض الوزير الأول بشدة إتخاذ الإجراءات الوقائية، وقال " أن ذلك يعني تعريض المؤمنون لمحن أعظم، ومصائب أكبر، فوافقه الديوان على رأيه، وبذلك تحتم على الداى أن يتخلى عن نيته الحسنة"<sup>(48)</sup>.

ويؤكد هذا النص ما ورد في العديد من المصادر من أن الحجر الصحي بالجزائر مرتبط بإرادة الداى وباقي رجال الدولة ومدى وعيهم لأهميته، فمنهم من كان يطبقه، ومنهم كان يرفض تطبيقه تسليما بالقضاء والقدر، كما في الحالة التي ذكرها شونبيرغ، حيث رفض الديوان تطبيق الحجر الصحي رغم موافقة الداى.

#### - الخاتمة:

من خلال ما سبق عرضه تتبين أهمية كتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال" في التأريخ لتاريخ الطب والأطباء بمدينة الجزائر خصوصا، وبأية الجزائر العثمانية عموما، سيما وأن مؤلفه فصل في ذكر الممارسات الطبية وطرق العلاج المعروفة بالجزائر، وأبرز ما يشد القارئ لهذا الكتاب هو الاعتدال والموضوعية التي اتصف بها مؤلفه في وصفه لمستوى الأطباء الجزائريين في المجال الطبي، حتى أنه لم يخف إعجابه ببعضهم كالطبيب إسماعيل بن محمد.

#### - الهوامش:

- 1 - ألبر فون شونبيرغ، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، (ط1).
- 2 - أبو العيد دودو، في مقدمته لكتاب " الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال"، لألبر فون شونبيرغ، ص، ص:3، 4.
- 3 - شونبيرغ، المصدر السابق، ص- ص: 34-37.
- 4 - المصدر نفسه، ص: 35.

<sup>5</sup> - لمزيد من الاطلاع فيما يتعلق برأي المصادر الأوربية في الأطباء الجزائريين ينظر: لزغم فوزية، الأطباء الأوربيون بالجزائر خلال العهد العثماني، مقال ضمن مجلة الدراسات التاريخية، الصادرة عن قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجزائر 2، العدد: 15-16، سنة: 2013، ص-ص: 161-163.

<sup>6</sup> - شونبيرغ، المصدر السابق، ص، ص: 40، 41.

<sup>7</sup> - رغم الاعتدال الذي تبدو عليه المصادر الألمانية إلا أن بعض الرحالة الألمان بالغوا في الحط من المعارف الطبية للأطباء بالجزائر كالطبيب الرحالة هابنسترايت الذي زار الجزائر في سنة 1732م. ينظر: هابنسترايت، رحلة العالم الألماني: ج. أ. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008، (ط1)، مواضع متفرقة من الرحلة مثلا ص: 77.

<sup>8</sup> - Laugier de Tassy, Histoire du royaume l'Alger . Editions Loysel, Paris, 1992, p: 82.

<sup>9</sup> - وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، تر: إسماعيل العربي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص: 81.

<sup>10</sup> - كان هلتون سامبسون (Hilton Sompson) هو الآخر موضوعيا في الحكم على الطب بالجزائر، وقد أكد على أن مهنة الطب في الجزائر تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء، وملاحظاته مهمة للغاية لأنه قضى أربع سنوات بالجزائر. ينظر: حليمي عبد القادر علي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830. 1972، (ط1)، ص: 274؛ لزغم فوزية، المرجع السابق، ص: 161.

<sup>11</sup> - Shaw, L 'Algérie un siècle avant l'occupation française (Au 18<sup>e</sup> siècle), témoignage de Shaw, Traduit par : J. Mac. Carthy . Editions imprimerie de Carthage, Paris, (2<sup>e</sup> éd), 1968. p-p : 47-51.

<sup>12</sup> - شونبيرغ، المصدر السابق، ص، ص: 40، 41.

<sup>13</sup> - المصدر نفسه، ص: 41.

14 - لا شك في أنَّ الطبيب الأول هو الباش جراح الذي ذكرت فلة القشاعي بأنه كان يتكفل بصحة الحكام، وأعيان الأتراك والأسرى. ينظر: فلة موساوي القشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1871-1518م)، دراسة أكاديمية معتمدة على وثائق الأرشيف الصحي والديمقراطي للمجتمع الجزائري. منشورات ابن سنان، الجزائر، 2013. ص: 357.

15 - شونبيرغ، المصدر السابق، ص: 40.

16 - المصدر نفسه، ص: 42.

17 - المصدر نفسه، ص: 54.

18 - المصدر نفسه، ص، ص: 71، 72.

19 - المصدر نفسه، ص، ص: 66، 67.

20 - المصدر نفسه، ص - ص: 67 - 71.

21 - المصدر نفسه، ص: 81.

22 - المصدر نفسه، ص: 37.

23 - المصدر نفسه، ص، ص: 39، 40.

24 - المصدر نفسه، ص: 62.

25 - المصدر نفسه، ص، ص: 49، 50.

26 - المصدر نفسه، ص، ص: 72، 73.

27 - المصدر نفسه، مواضع متفرقة، مثلا الصفحات: 75، 81، 87.

28 - المصدر نفسه، ص: 41.

29 - المصدر نفسه، ص - ص: 66 - 69.

30 - المصدر نفسه، ص: 36.

31 - المصدر نفسه، ص: 41.

32 - المصدر نفسه، ص، ص: 66، 67.

- 33 - المصدر نفسه، ص: 47.
- 34 - المصدر نفسه، ص: 36.
- 35 - المصدر نفسه، 53.
- 36 - المصدر نفسه، ص، ص: 53، 54.
- 37 - المصدر نفسه، ص: 43.
- 38 - المصدر نفسه، ص: 44.
- 39 - عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص: 274.
- 40 - توجد في نسخة الكتاب الذي اعتمدت عليها أخطاء مطبعية كثيرة، وفي هذا النص مثلا لا توجد كلمة "إمكانيات"، ولكن سياق النص يقتضي أن هذه هي الكلمة التي سقطت من النص.
- 41 - شونبيرغ، المصدر السابق، ص- ص: 44- 46.
- 42 - المصدر نفسه، ص- ص: 67، 68.
- 43 - المصدر نفسه، ص: 70.
- 44 - المصدر نفسه، ص: 55.
- 45 - المصدر نفسه، ص- ص: 68- 70.
- 46 - المصدر نفسه، ص، ص: 49، 50.
- 47 - فوزية لرغم، المرجع السابق، ص: 165.
- 48 - شونبيرغ، المصدر السابق، ص، ص: 39، 40.